



غسل القلوب

يعقد محمود درويش علاقة معقدة مع جمهوره، كأنه يهرب احياناً من مواجهته، ربما خوفاً من ان يصبح الشعر مجرد ستار للقضية. يرفض ان يأسره الجمهور لكنه يعرف ان عليه احياناً اخرى ان يلقي السلاح امامه. يوم امس كان محمود درويش في خدمة جمهوره بالمعنى العريض للكلمة. كثيرون ممن احتشدوا في مدارج المدينة الرياضية لم يقرأوا شعره من قبل، او انهم اكتفوا ببعض قديمه الشائع، او سمعوه على انغام موسيقية بصوت مارسيل خليفة او غيره.

الاصح القول انهم، فلسطينيون ولبنانيون وآخرون، شعب محمود درويش وليس جمهوره بالمعنى الدقيق. ومع ذلك، لم يتردد الشاعر في ان يضع نفسه في خدمتهم. وحسناً فعل، رغم بعض الخلل التقني في تنظيم الحفل. فالمناسبة لم تكن للادب والثقافة، بل كانت لحظة في السياسة، لحظة كثيفة اقترنت فيها ازمنة سياسية مختلفة: زمن فلسطين في معركة استقلالها، وزمن لبنان في مفارقات حريته، زمن الشارع المفتوح مجدداً على احتمالات الاحتجاج، وزمن الفضائيات التي تختزل الاحتجاج بشعار او اثنين.

???

لم يكن محمود درويش على خصام مع بيروت حتى يُعتبر ما جرى امس في المدينة الرياضية مصالحةً. ولم تكن بيروت على عدا مع محمود درويش حتى يكتسب اللقاء معه معنى الصلح. لكن شيئاً ما كان يوحي ان مهرجان الاحتفاء بفلسطين، شعراً واغنيةً، مناسبة لغسل القلوب. ربما هو اختلاط اعلام فلسطين بالاعلام اللبنانية، او تجاور بيارق الاحزاب المختلفة، او صور ياسر عرفات تعبر المدرجات من دون ان تستقر احداً، حتى اولئك الذين كانوا في الامس القريب يترجمونه كل صباح.

تنظر الى الأوجه، وخصوصاً في المنصة الرسمية. هل كل ما قيل منذ اعوام ضد الرجل هو من انماط التقية؟ ومع ذلك، ثمة من ينسى ان شرط غسل القلوب هو مساءلة النفس قبل محاسبة الآخر. وعلى غرار من يدعون انهم عادوا يؤيدون الفلسطينيين لأنهم يقاومون "الآن" (!)، لم يستطع عريف الحفل ومنظمه، الزميل طلال سلمان، ان يكمل معروفيه حتى النهاية، فلم يكده يلفظ اسم ياسر عرفات الا وأرفقه بجملة تخفيفية تحدثت عن "استعادة" الرئيس الفلسطيني "صورة المقاتل".

لم يكن العريف يدرك ان عرفات اياه كان، في اللحظة نفسها، موضع جملة تخفيفية اخرى في واشنطن، حيث قال احد كبار موظفي البيت الابيض ما معناه انه لم يكتسب بعد صورة القائد. في اي حال، لم تأت الآلاف المؤلفة الى المدينة الرياضية لتستذكر احكام القيمة الاميركية او لتحضر حفل تسليم شهادات. كانت هي التي تشهد. لا تحاكم، على الاقل في ما يخص لبنان، بل تشهد ان بيروت تنفض "تعريباً" قسرياً رمادياً كاد ان يسد شرايينها، لتستيقظ الى عروبة الحياة. وما استشعره اكثر من مشاهد، من خلال المقارنة بين الصور التي حضرت وتلك التي غابت، قالتها بالفم الملآن ماجدة الرومي، فأخرجت اكثر من واحد على المنصة الرسمية، حين ذكرت انها استعارت في الاصل "حاصر حصارك" من شعر محمود درويش، لتغني من اجل اخوانها اللبنانيين حين كانوا محاصرين يسعون الى الحرية والامل. للتذكير، عندما اطلقت ماجدة الرومي اغنيتها، قبل اكثر من عقد، كادت



"حاصر حصارك" تتحول نشيداً عونياً، حتى ان محمود درويش اضطر الى ان يقول، خلال حضوره احدى الحفلات في باريس، انه لم يكتب هذه الابيات كرمى لميشال عون. ولا بأس في اي حال ان حصل الخلط. بالامس، كانت معاني الشعر الاصلية واسقاطاته المكتسبة تتضافر لتوسع الصدى، وتعمم غسل القلوب عبر شاشات التلفزيون.
???

لحسن الحظ، لم تنتظر بيروت الحصار الشاروني الجديد لتفتح ذراعيها مجدداً لمحمود درويش. لسنين طويلة، كانت ثمة ريبة تحول دون عودته اليها، وعندما بدا ان الحدث صار ممكناً في السياسة اللبنانية، حالت دونه تعقيدات فنصلية ثم حادث صحي خطير تعرض له الشاعر في باريس ومنعه من المشاركة في ذكرى نصف قرن على النكبة. اخيراً، حضر محمود درويش في نهاية ١٩٩٩ لاجياء امسية في ختام مؤتمر القدس الذي نظّمته نقابة المهندسين في قصر الاونيسكو، وقد امتلأت قاعته ذلك المساء، ومعها الباحة الخارجية. وفي الصيف الماضي، عاد درويش الى لبنان بدعوة من جامعة البلمند، وحضرت معه الحشود. لكن في الحالين، أثر الشاعر تأجيج خلافه المزمّن مع بعض من جمهوره، مفضلاً قراءة مقاطع من "الجدارية" ومن القصائد الملحمية التي انشغل بها منذ الثمانينات، على الابيات الاكثر شعبية وشيوعاً.
???

في قلب "السجال" بين محمود درويش وجمهوره مسألة الغنائية، كما بدا جلياً من المكالمات التي جاءت خلال مقابلته مع تلفزيون "المستقبل" مساء الجمعة الماضي. ولكن قبل ذلك، تغذى "السجال" طويلاً من قضية "سجل: انا عربي". فمنذ خرج الشاعر من فلسطين مطلع السبعينات وهو يتردد حين يُطلب منه تلاوة هذه القصيدة، وفي معظم الاحيان، ان لم يكن كلها، يرفض ذلك. عشية مهرجان المدينة الرياضية، وحين قال احد الاصدقاء ان الجمهور لن يوقره هذه المرة ايضاً، قال الشاعر: "حقهم". ويوم امس، لم ينتظر ان يسمع طلباً حتى يستجيب. بادر، من تلقائه. "الآن، الآن فقط استطيع ان اقول: سجل: انا عربي". كان درويش يشير بذلك الى استفاقة الشعوب العربية، وفي اعتقاده ان التحركات الشعبية في الشوارع العربية تدل على استعادة نبض الحياة. وهو بهذا المعنى يدين الى هذه الشعوب بشيء من المباشرة.

لا يقولها جهاراً، لكنه يقبل ما لم نعهده فيه منذ زمن طويل. وكان قد ظهر هذا التعديل السلوكي خلال المقابلة الطويلة التي بثها تلفزيون "المستقبل". فرغم اصرار المذيع على تحويلها "ما يطلبه المستمعون"، ابدى درويش طول بال ادهش عارفيه. حتى انه لم ينفعل من تأوهات المذيع الطريفة، بخلاف ما يعرف عنه. من الواضح انه اخذ قراراً في قرارة نفسه بمهادنة الجمهور العريض بعدما قطعت الحرب المتجددة في فلسطين هدنته الشعرية. لم تكن هدنة بالمعنى الصحيح، بل كانت ايضاً استعارة من الزمن الفلسطيني. وكان انكباب النضال الفلسطيني على البناء المؤسسي اتاح له اخذ مسافة لسبر عوالم شخصية، كما في جداريته وفي "سرير الغريبة"، سعياً ربما الى موافاة طموح شعبه الى حياة عادية. لكن محمود درويش ليس شاعراً عادياً. فاذ يضطره حصار جديد الى قطع هدنته، لا يتخلى عما راكمه منذ اخذ شعره منحاه الملحمي، وما اكتنزّه عندما غاص في رحلة الحميمة. ولعل هذه المزوجة بين ترويض الموت ورهان الحياة ما يجعل من "حالة حصار"، عمله الاخير، قصيدة انسانية كبيرة. فعسى ان تقرأ بكاملها، واولاً في لبنان.
???

المشهد اللبناني - الفلسطيني لم يكن ينقصه امس الا شيء واحد: حضور الياس خوري. كان الياس من القليلين في بيروت الذين حافظوا على علاقتهم بمحمود درويش رغم البعد والتباعد والابعاد،



لكنه لم ينجح في ان يقطع اقامته في نيويورك، او كما يقول في "فم الغول"، حتى يشهد اكتمال صحوة في الوعي تدين له اكثر بكثير مما تدين لأي من "المتفلسطين" الجدد.

سمير قصير



Id-Reference	02-Pr-000749	
Media	(Support)	HC
Title		غسل القلوب
Subtitle		
Section		مرور الكلام
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠٢/٤/١٥ 15/4/2002
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	الياس.خوري - محمود درويش - ياسر عرفات - شارون - طلال سلمان - ماجدة رومي - ميشال عون
	Locations	فلسطين - لبنان - اميركا - باريس
	Dates	١٩٩٩
	Themes	محمود درويش - مهر جان احتفاء بفلسطين - قصر اونيسكو - مؤتمر قدس - جامعة بلمند - تلفزيون مستقبل - مشهد لبناني فلسطيني
Subject		